الفصل الثاني عشر:
الإسلام والبيئة

لن تجد المسلم الذي يجرؤ على الزعم بأن مشاكل البيئة المحيطة، التي تتهدد العالم، قد فطن إليها نفر من المسلمين قبل غيرهم.

إن أول من دق نواقيس الخطر، كان «نادي روما» صاحبُ الفضل في هذا الأمر، حيث كان تقريره المنشور عام ١٩٧٢ بعنوان «حدود النمو» بمثابة انفجار قنبلة هائل الصدى حتى في ألمانيا ذاتها، وإنني لأتذكر جيداً كيف عهدت الحكومة آنذاك فوراً إلى قسم المتابعة والتخطيط بوزارة الخارجية بالقيام بدراسة الموقف، مع تحليل العواقب السياسية الخارجية المترتبة على ذلك التقرير.

كذلك، فلن يجازف أحد فيجسر على الزعم بأن الدول الإسلامية حتى اليوم تحافظ على البيئة محافظة واعية مسؤولة أكثر من الدول غير الإسلامية، بل العكس هو الصحيح، إذ ينسحب على العالم الإسلامي ما جاء في كلمة وزير الخارجية الألماني هانز ديترش جنشر بتاريخ ١٩٩١/٩/٢٥ في الاجتماع العام للأمم المتحدة بنيويورك، حيث قال: «لا يزال الإنسان حتى يومنا هذا يشن حروبه على كافة المخلوقات».

وطالما دخلت الدول الإسلامية في عِداد دول العالم الثالث الذي لم يمض في التطور إلا يسيراً، فإنه يبدو لها أن التشريعات القانونية للحفاظ على سلامة البيئة ومكافحة ما يضر بها، وما يستتبع ذلك من تكاليفَ بالغة، لون من ألوان الترف، الذي تستطيعه أو تطيقه الدول الصناعية الغنية وحدَها اليوم.

بيد أن مسلمي ألمانيا، خاصة أحمد فون دنفر[1] وهارون بير[2] وأكسل كولر[3] ما لبثوا أن صدمهم مقدارُ الخراب والتخريب والتلوث والتدمير مما ألم بالبيئة، فشمروا عن سواعد الجد لوضع أسس إسلامية لعلم الأخلاق البيئي الإسلامي.

ولقد كانت قضية البيئة وتلوثها والإسلام، الموضوعَ الرئيسيَ الذي عولج في الاحتفال بمرور ربع قرن على إنشاء المركز الإسلامي في آخن يوم ١٧ مايو ١٩٨٩، وقد كانت النقاط الخمس التالية القاسمَ المشتركَ في المناقشات:

١ ـ السبب الحقيقي لما آلت إليه البيئة من وضع متدهور وخيم العاقبة تَجَاوزَ حدود التحمل الطبيعي، إنما هو اغترارُ الإنسان غير المؤمن بوجود الله اليوم بجبروته، حيث سولت له نفسه بأنه السيدُ المسيطر على الطبيعة والبيئة فاعتقد ذلك يقيناً، وسَغَبُهُ الاستهلاكيُ النهمُ بلا حدود لكل ما يُشبع ملذاتِه على حساب الطبيعة، سادراً فيها لا يرعوي، ولا يرعى لها حقاً، كأنما ليس لها حقٌ ذاتي في الوجود السليم، لا تُضار. أما المسلم فيدرك أنه لا يملك شيئاً، وأن الملك كله للّه، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله ذرأه في الأرض، لا ليستعبدها بالمعنى المذكور في الإنجيل، وإنما هي وديعَة ذلول استخلفه الله ليقوم بحقها، ويستغلها استغلالاً مسؤولاً ﴿...**إن ربك سريع العقاب، وإنه لغفور رحيم**﴾[4].

٢ ـ المسلم مكلف بالاعتدال في كل شيء، وليس له أن يسرف بأي حال من الأحوال في استهلاك مصادر الطاقة وغيرها من مقومات الحياة، ﴿... **إنه لا يحب المسرفين**﴾[5].

وبوجه عام، فإن ذلك جميعه يفضي إلى المبدأ الذي يلح على ضرورة حفظ التوازن البيئي، كما نبه على ذلك القرآن لحكمة معلومة، فقال تعالى: ﴿...**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾ (آل الأعراف، الآية ٥٦).

ولو تدبرت هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي تنهى عن الفساد في الأرض، وحفظ الحرث والنسل، لفهمت مغزى تجنُّب الإغراق في التَّرفَ

والسَّرَف، بل إن المسلم لا ينبغي له أن يملأ بطنه شبعا[٥]، فالمسلم، على هذا، المحافظُ على البيئة بالوراثة كما خلقه الله، يحترمُ قوانينها ونواميسها ولا يخرج عليها، ليس لمجرد خوفه من الكوارث التي تتهدده لخرقه تلك النواميس.

٣ ـ يسهب القرآن الكريم في ذكر الظواهر الطبيعية، أو مشاهد الخلق الدالة على عظمة الخالق، لتبثّ في الإنسان الخشية والرهبة المبجِّلة لعظمة القدرة الإلهية في الخلق، فيري المخلوقات دليلاً على الخالق، والمسلم حقاً يدرك أن الكون كله أمة واحدة تسبّح للّه آناء الليل وأطراف النهار ﴿...**يسبّح له من في السماوات والأرض**﴾ (النور، الآية ٤١).

ولك أن تتدبر ظاهر هذه الحقيقة، التي يبرزها ويوكدها القرآن الكريم رمزاً، حيث تحمل عدة سور منه اسم كائن حي، من الحيوان، والشَّجَرِ، والحَشَرِ، ومن الجماد كالحديد، ومن الأفلاك كالشمس والقمر، ومن ظواهر الطبيعة، وغير ذلك مما يحفل به القرآن الكريم[٧].

ومن الأهمية القصوى أن نَفْقَهَ في هذه الآيات جميعاً، أن الإنسان نفسه مخلوق أي أنه جزء من الخليقة، يشترك مع الطبيعة ذاتها ومع كل المخلوقات في خضوعه لقوانين الخلق، وما أجمل وأصدق تعبير القرآن إذ يمس هذه الحقيقة مسّاً لطيفاً، هو مس الخبير اللطيف: ﴿**وما من دآبّةٍ في الأرض، ولا طآئر يطير بجناحيه، إلاَّ أممٌ أمثالُكم، ما فرّطنا في الكتابِ من شيءٍ، ثم إلى ربهم يُحشرون**﴾ (الأنعام، الآية ٣٨)[٨].

إذن، فليضع المرء نصب عينيه أن المسلم لا يرى في الحيوانات أشياء متحركة يتصرف فيها كما يهوى، أو متاعاً مشاعاً لا حرمة له كالأموال السائبة كما اعتبرها القانونُ المدنيُّ الألماني قبل عام ١٩٩٠[٩]، وإنما الحيوان أمم أو أعضاء أمم لها حقوقها المرعية (من كلاب وقطط وخيل وغير ذلك)، كما أن المسلم نفسه عضو في الأمة الإسلامية... وفي هذا ضرب الرسول ﷺ أمثلة في

---

(٥) كما أوصى الرسول، الذي أوصى كذلك بعدم الشرب في آنية الذهب والفضة، والأكل فيها، ولبس الحرير والديباج والجلوس عليه، كما ذكر البخاري: (المترجم).

الرفق بالحيوان، ونهى عن تعذيبه، سواء كان حيواناً أليفاً ضعيفاً أو عاجزاً، أو طائراً صغيراً[١٠].

هذا لا يعني تحريم الإفادة من عالم الحيوان، فالإسلام إنما حرم تعذيب الحيوان، وسفك دمه إرضاءً أو إشباعاً لرغبة الصائد، أما المنفعة المشروعة فهي حلال للمقتصد.

٤ ـ القرآن الكريم ليس موسوعة في العلوم الطبيعية كدوائر المعارف المتخصصة، وليس بكتاب في التكهن المخبر عن الغيب، حتى لو تبين للمتدبر فيه آيات تحذر الإنسان من العواقب الوخيمة لإفساده للبيئة، وبغيه الفساد في الأرض، مما يمكن رصده الآن مصداقاً للتحذير الإلهي، ومن أمثلة ذلك ما أشار إليه أحمد فون دنفر من ظاهرة المطر الأُجاج، الذي أشارت إليه الآيات (٦٨ ـ ٧٠) من سورة الواقعة، حيث قال تعالى: ﴿**أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟ لو نشآء جعلناه أُجاجاً، فلولا تشكرون!**﴾.

٥ ـ الالتزام بالنظافة، أيضاً فيما يتعلق بالبيئة من الأمور الأساسية التي حرص عليها الرسول، ﷺ، وأوصى بها المسلمين، إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة نصف الدين أو الإيمان، والحق أن إفساد البيئة وتلويثها المفني لها، إنما يبدأ بتلويثها البسيط أو عدم التزام النظافة وإماطة الأذى عنها[١١].

من هنا نقول لمن يسمع ويعي، إن حل مشكل تلوث البيئة المستشري لا يتأتى باتباع المنادين بالرجوع إلى الطبيعة بوصفها الدين الطبيعي مثل هولجر شلايب، ولن يتأتى بالتهويم في الرومانسية التي يروج لها ساسة الخضر، رومانسية الطبيعية الخضراء، ذلك أن العواقب الوخيمة لتجاهل وجود الله أخطر ما يتهدد البيئة، ولا يدفع هذا الخطر عنها تأليهُ البعض لها، والتغني بحبها وقداستها. والحق كل الحق كذلك إلى جانب فردينانند فللمان، الذي حذر من مغبة التغني المفرط الحالم بفلسفة جديدة تقدس الطبيعة، وقد تبين بحق «أن ضالّة الفلسفة، التي تمخضت عنها كوارث تلوث البيئة الوخيمة العواقب، ليست فلسفة جديدة للطبيعة، بقدر ما هي فلسفة جديدة للتكنولوجيا».

الأمر إذن، ليس الحب الطاغي أو الشعور العاطفي الجارف إزاء مذهب جديد في وحدة الوجود، بل إن الأمر يدور حول إعادة تحقيق الواقعية المفقودة للتكنولوجيا المصابة بداء التضخم المتجاوز لكل حد، والتي أصبحت لها السيادة على كل شيء[١٢].

وباختصار: إن الأمر الجوهري المطلوب يتمثل في نوعية جديدة مختلفة من الاقتصاد.

لقد فطن إلى هذا بعض الشبان والشابات في محيط المنادين بالسياسة الخضراء، فقد لاحظوا أن جوهر القضية هو ضرورة تغيير الإنسان نفسه بصفته المستهلك، إذ شعروا أن نظرة الإنسان إلى العالم باعتباره موقعَ الأحداث والوسيلةَ والغايةَ، لا يمكن استرجاعها بواسطة التزام الاعتدال وفرض القيود المعقولة أو الحكيمة على النفس، لأن إنقاذ الطبيعة يتطلب أكثر من ذلك بكثير، إنه يتطلب تغييراً جذرياً تاماً للنظام الاقتصادي المستغل المنتهِك لقوانين الطبيعة، وهذا يتطلب تغيير الإنسان المستهلِك أولاً.

هذا التغيير الجذري الذي يتغلغل كل شيء لن يتسنى له النجاح إلا إذا فهم المسلم أنه عبد للّه، بكل ما في الكلمة من معنى.

هكذا تدخل أفواج من المتلمسين الإصلاح في السياسة التي ينادي بها الخضر، في الإسلام، بعدما تيقنوا أن الحل البديل الذي تصوروه، ليس البديلَ المأمولَ، وبعد أن أسلموا أنفسهم للخوف من الخوض في مغامرتهم حتى النهاية، بشكل يكاد يكون حتمياً ومضحكاً.. فإذا كانت مخاوفُهم بادىء الأمر عَرَضاً مَرَضيّاً لأزمة القيم في المجتمعات الغربية، فقد تبدّلت تلك المخاوفُ ذاتُها إلى حوافزَ قويةٍ باحثةٍ عن السلام، في الخشوع للّه، باعتناقها الإسلام ديناً، ففيه ضالّتُها وهُداها.

الملاحظات الهامشية للمؤلف:

(١) أحمد فون دنفر: القرآن والبيئة، مقالة في مجلة الإسلام، ميونخ ١٩٨٣، العدد رقم ٥/ ٦، ص ٢، وما يليها. كذلك مقالته: مشكلة البيئة والإسلام، مجلة الإسلام، ميونخ ١٩٨٩، العدد رقم ٢، ص ٢٠، وما بعدها.

(٢) هارون بير: العودة إلى دين الفطرة، مجلة الإسلام ١٩٨٥، العدد (؟)، ص ٥ وما يليها.

(٣) أكسل كولر: علم الأخلاق البيئي في الإسلام: محاولة التحديد المعياري للموقف في: ولله المشرق والمغرب، في الكتاب التذكاري للاحتفال بالأستاذ عبد الجواد الفلاتوري، كولونيا ١٩٩١، ص ٥٤ وما يليها.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٦٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٤١.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٧) هناك أسماء سور كثيرة في القرآن، تعد مثلاً على ذلك، منها: البقرة، الرعد، النحل، النور، النمل، العنكبوت، الطور، النجم، القمر، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، الفيل.

(٨) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

(٩) تغيرت هذه النظرة، فإذا الدستور الألماني ينص في المادة رقم ٩٠ (أ) الصادرة بتاريخ ٨/٢٠/ ١٩٩٠ أخيراً، على أن الحيوانات ليست أشياء كالمتاع مثلاً.

(١٠) هناك أحاديث حول هذا المعنى تجدها في ترجمة أحمد فون دنفر مثلاً، ص ٢٤ ـ ٢٧.

(١١) النووي: الأربعون الصحيحة، الحديثان رقم ٤٠ و٢٣، وقد أخرجهما مسلم.

(١٢) جريدة فرانكفورت العامة (ألجماينه) بتاريخ ١٨ فبراير (شباط) ١٩٨٧.